على أن الرافعي كان له إحساس تحبب في مجالس النساء ، وكان لهن عليه سلطان وله سحر وفتنة . وهو في هذه المجالس فكه مداعب رائق النكتة لا تملك السيدة الرزّانُ في مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ؛ وكانت هذه أداته في استمالتهن حين يلتمس الوحي أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعراً في عين ساحرة . فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشيء وينظم وتنتهي قصة حب

وكان يسمى كل جميلة (شاعرة) لأنها هي تمنحه الشعر ، و (الشواعر) عنده طبقات، على مقدار ما يبعثن فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه ؛ ففلانة شاعرة كالمتنبي ، وهذه كالبحتري ، وتلك بنت الرومي ، ورابعة بشار بن برد ، وخامسة عبدالله عفيفي أو شاعر الرعاع ... !

وحين يجلس في شرفة قهوة (لنوس) بطنطا وتمر به الجميلات في رياضتهن أو في حاجتهن ، تسمع ثبتاً حافلاً بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهي بفلان الذي يؤمل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء ... !

هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره ؛ على أنني وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعدُ عن حب الرافعي التي حاولتُ هذا المقال لأتحدث عنه

إنها حادثة وقعت في تاريخ الرافعي وسنه ثلاث وأربعون سنة فأنشأته خلقاً جديداً ، كانت دعابة من مثل ما قدّمتُ فأوشكت أن تكون علة ، فلما اختار الله له أنقذه بكبريائه من دائه ، ولكنه خلّف في قلبه جرحاً يدّمى ، ولكنها كانت بركة في الأدب وثروة في العربية

من تكون هذه الشاعرة التي غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه ؟ ما شأنها وما خبرها ؟ هذا موضوع حديثي في العدد القادم

محمد سعيد العريان

العـــدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

دراسات في الأدب الانكليزي

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعة الطوال

تابع ما نشر في العدد الماضي

على أن كرمويل ما لبث أن توفي ، فكان موته زلزالاً عنيفاً قوض دعائم ذلك الدستور الذي شاد بيده الحديدة بنيانه ؛ وزاد في الطين بلة ضعف خلفائه السياسي ، فعادت الملكية إلى مكانتها السابقة ، وكان طَبيعِيًّا أن تنتقم من البرلانيين ، وتثأر منهم لعرشها المغصوب وعزها المسلوب . أما ملتون فقد أدرك ما للملكيين عنده من الثأر الجسيم ، وذلك لما نالهم منه من الطعن والامتهان والزراية ، فأوجس خيفة من شرهم وانتقامهم ، فتوارى عن عيونهم مدة من الزمن تجنباً لكيدهم ؛ إلا أن هؤلاء بثوا وراءه العيون والأرصاد ، فتمكنوا من القبض عليه ، وزجوه في غياهب السجن وغرموه غرامات مالية فادحة ؛ ثم سيق للمحاكمة ، وقد كاد يحكم عليه بالإعدام لو لم يدافع عنه أمام المحكمة أشهر رجال المحاماة في ذلك العصر

وفي عام ١٦٦٢ م اعتزل ملتون السياسة ، إذ فقد بصره وأصبح غير قادر على الاتصال الفعلي بالهيئة البشرية الاجتماعية ، والاشراف على أحداثها السياسية والدينية والاجتماعية ، فقصر وقته لذلك على الدرس والاجتهاد ، وأكب على التأليف حتى نبه صيته في جميع الأوساط الأدبية كشاعر فذّ وكاتب بليغ ، ومع اعتزال ملتون الفعلي للأمور السياسية فقد ظل يهز الرأي العام بكتاباته وشخصيته الفنية بعد الأخرى ، وهو وفيد وحدته ، ووحيد عزلته . وما هي إلا ثلاث سنوات قضاها في عقر بيته منعزلا عن المجتمع حتى أخرج للعالم ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود وهي أعظم سفر أدبي في سجل الأدب الانكليزي ؛ وقد لا نجد لها حتى اليوم مثيلاً إلا بالرجوع إلى الملاحم العالية السبع (١)

(١) هذه هي الملاحم العالية الثمانية كما عدها الأستاذ W. H. Stephenes

(1) Ilisd (2) Odyssey (3) Aeneid
(4) Niebelungen (5) Lied (6) Divine comedy
(7) Jerusalem Delivred (8) Paradise last

الفردوس المفقود

لقد أجمعت الآراء على أن ملحمة الفردوس المفقود في الأدب الانكليزي كالألياذة في الأدب اليوناني والكوميديا الالهية في الأدب الايطالي ، وأنها في شهرتها الواسعة هي الثالثة لهاتين اللحمتين العاليتين . ولئن وجد فيها بعض المتحذلقين من نقدة الأدب مجساً لمشارطهم ومغمزاً لمباضعهم ، إلا أن ذلك لا يمنع الأديب المنصف من أن يرى فيها للأدب الانكليزي تعويضاً عادلاً لركوده وتغلب الموجة السياسية عليه في عهد الإحياء (New Birth)

لم ينظم ملتون هذه اللحمة الشهورة دفعة واحدة ، ومن المؤكد أنه ابتدأ نظمها بعد أن اعتزل السياسة ، وبعد أن فقد بصره . ولقد أملى أبياتها على أكثر من كاتب واحد ، يدل على ذلك نسخها الخطية الأصلية التي لا تزال محفوظة في مكتبة « كلية ترنتي » في « كمبردج » . وقد طبعت لأول مرة عام ١٦٦٧ في عشرة أجزاء ، ثم نقحت وزيد عليها جزءان آخران ، وطبعت للمرة الثانية في اثني عشر جزءاً وذلك عام ١٦٧٤ . أما موضوعها فقد استمده من الكتاب المقدس ، وأوحى إليه بمادتها الجزلة ذلك النزاع الخطير الذي قام في إنكلترا من اصطدام المبادئ الديمقراطية التي ترمي إلى رفع لواء حرية الشعب الدينية والسياسية بالمبادئ الملكية الأرستقراطية التي غايتها جعل شئون الأمة وحريتها في أيدي الملوك كالآلة الصماء يديرونها في لهوهم وعبثهم أنى شاءت لهم أنانيتهم وكيفما رغبت أهواؤهم . وإذ كان لا بدَّ للأدب الحي من أن يصور المجتمع في سلمه وحربه ، ويجاري الزمن في تقلبه وتطوره ، فقد صور ملتون ذلك النزاع الخطير الذي خاض غماره في ملحمته هذه تصويراً دقيقاً لا مزيد عليه

لقد كان الدين إذ ذاك مشتجر الآراء ، ومصطرع البطانات ، ومحور الخلاف بينها ؛ وكان لا بد لمن أراد أن يكون مبرزاً في هذا الميدان الديني من أن يكون ملماً بجميع النصوص الدينية ، ولذلك أقبل الأدباء على الكتاب المقدس يتدارسونه وعلى الانجيل يتدبرونه ، طمعاً في الشهرة والفوز ؛ وقد كان ملتون أبعدهم في ذلك غوراً وأكثرهم في الدرس مطالعة واجتهاداً يحفزه عليه سُماره للشهرة ، وحبه للجاه ، وطموحه للسمو والمجد ؛ ناهيك بتوقد فطنته ، وطاعة ذهنه ، وتوثب شاعريته ، ولذا فلا عجب إذا رشحت دراساته للدين ، وتغلغله في ثناياها بمثل ملحمة « الفردوس المفقود » التي اختلف الأدباء على تقديرها ، وانقسموا إزاء تمجيدها شأن انقسامهم إزاء كل أمر خطير ، إذ كانوا في ذلك بين منتقص ذي هوى لم يسلم من الغلو والاسراف ، ومطنب في المديح لم يسلم من التحذلق والإغراق ؛ وليس أدل على هذا من هذه الفقرات الموجزة التي نثبتها فيما يلي بإسنادها إلى أصحابها تاركين للقارئ حريته في تمييز غثها من سمينها

رأي جونسون

لقد مهد جونسون لرأيه في ملتون بما قرره « بوصو » عن الشاعر المجيد إذ يقول : « الشاعر الفذ المجيد هو الذي ينظم قصيدته وينشرها لغاية سامية ينشدها ومثل عليا يتطلبها ، وتكون الحقيقة فيها هي بيت القصيد بل أسها الذي تقوم عليه ؛ وما الخيال بجانبها إلا أداة طيعة يمهد بتلفيقه سُبُلَ الوصول إلى غايته المنشودة ومُثُله العليا المقصودة » ، ثم جعل من هذه الفقرة الموجزة دستوراً للنقد ومحكاً للشعر يعرف بها غثُّ القصائد من سمينها — ولو إلى حد — وأخيراً قال : لقد ألف ملتون ملحمة الفردوس المفقود ليمهد للدين سُبُله الوعرة التي ضلت فيها عديد البطانات وليدحرج من هذه السبل تلك الصخرة الناشزة التي تحطمت عليها مختلف العقائد ، وتنكرت أمامها أكثر الحقائق ؛ ولعله لم يكن له من غاية أخرى سوى نظم الحقائق الدينية ، ونقلها إلى الغير عن طريق القلب لا العقل ، وبصورة لا أثر فيها ألبتة لالتواء اللاهوت وإبهامه ، ولتعسف المنطق واحتمال تأويلاته ، ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، إذ جمح به الخيال حتى أخرجه عن دائرة الحقيقة ، وشردت به الشاعرية المتوثبة حتى أبعدته عن منطقة المعقولات ؛ فجميع أغراضه متنكرة كأنها لغز غامض ، وتعابيره ملتوية كأنه يقول شيئاً ويريد غيره ، وصوره شائهة حتى لكأنها من تلفيق الخيال المحض الذي لا حقيقة له في الوجود . وبالجملة فإنه ليس فيها من أثر لما يريد خلا ما كان من بعض القوافي المقوتة المصطنعة ، والألفاظ المزركشة الآبدة ، والتعابير المستعصية الغامضة ، التي يند عنها الطبع وينشز منها الذوق

رأى ماكولى

الفرق بين أشعار ملتون ودانتى كالفرق بين الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة التصويرية المكسيكية ؛ فبينما يصور الثانى إحساساته صورة لفظية كاملة ، وينفض عليك عواطفه كما جاشت فى صدره واعتلجت فى قلبه ، إذ بالأول لا يزيد فى وصفه على الإشارة الخامضة ، ولا فى تصويره عن الصورة المبهمة للشىء — أى السودة — ذلك يصف الأشياء بجزئياتها ، وهذا يحيطها بستر كثيف من التورية البعيدة ، والاستعارة الدقيقة ، التى لا تظهر معها إلا بعد إعمال الفكر وكد الخاطر . وأكاد أجزم جزم اليقين أن ليس بين الأدباء من قرأ ملحمةَ الفردوس المفقود فعلقت شحنتها بشغاف قلبه ، أو هزت نبراتها وتراً من أوتار حسه . وعندى أنها ليست فى الشعر إلا كالأحاجى فى اللغة ، ولولا ثوب الشهرة الفضفاض الذى يضفيه الأدباء على ملتون فى غير استحقاق لكانت ملحمته هذه صفراً على هامش الأدب ؟؟!

رأى هزلت

لقد كان شكسبير يعنى بنقد المجتمع وسوءاته أكثر من اعتنائه بنقد الديانات وطوائفها ، وكان أيضاً ينظم الشعر بدافع الفطرة الشعرية الكامنة فى نفسه لا بحافز الشهرة الذاتية ، ولهذا كان مغايراً لتلون كل المغايرة ؛ وذلك لأن ملتون كان مصاباً بسعار الشهرة ، وشديد التمسك والتعصب لمبادئه الطهرية الدينية . لقد كان كلاهما شاعراً فذاً ، إلا أنه بينما يَسيرُ الأول — شكسبير — وراء خياله وعاطفته ، إذ بالثانى — ملتون — يُسيِّرُ خياله وعاطفته وفق إرادته ؛ فعاطفة الأول هي التى تدفعه إلى قرض الشعر ، بينما إرادة الثانى هى التى تستكره خياله على النظم ؛ ذاك تنسم أشعاره بعفو الخاطر وبداهة الفطرة وتوقد العاطفة ، وهذا تنسم قصائده بجهد الفكر ، وغزارة المعرفة ، ومسحة العقل ، وتصنع الخيال ، وبرود العاطفة ؛ ذاك تنسم أشعاره بحرارة القلب الملتهبة ، وهذا بغزارة العقل الرائعة

لقد كان ملتون محباً للوحدة ، على حين كان شكسبير مغرماً بالمجتمعات الزاخرة ، ولذا فبينما يصور الأول — على العموم — نفسه بأشعاره ، إذ بأشعار الثانى صورة جلية لمحيطه ، ومرآة مجلوة تنعكس عنها مرئيات بيئته . كان ملتون مشغوفاً بالدرس والمطالعة ، بينما كان شكسبير لا يجد اللذة والراحة إلا فى مطاوي الطبيعة ومناجاة أسرارها ومحاكاة مرئياتها . ذاك — أى ملتون — يمثل بأشعاره قوة العقل وسلطان الإرادة ، وهذا يمثل حرارة العاطفة وسلطان القلب

على أنه ليس فى هذا ما يمنعنا من أن ننظر إلى ملحمة الفردوس المفقود نظرنا إلى الإلياذة والأوديسة — أو القدس المحررة — لتاجور ؛ ذلك لأنها وإن كانت تتسم بقوة العقل وجبروته إلا أنَّ فيها من حرارة العاطفة ما يبث له القلب ، ويعتلج له الصدر . ولئن دقت تعابيره ، والتوت أغراضه ، وسما أسلوبه فى بعض المواضع ، فما ذاك إلا لسمو الفكرة التى يصورها ودقة التعبير عنها . ولأنه يخاطب بأشعاره الخاصة لا العامة

لم يتقيد ملتون فى ملحمته « الفردوس المفقود » بالتزام قافية واحدة ، وليس ذلك لعجزه وضعفه ، فقد كانت القوافى أطوع لخاطره من بنانه ، كيف لا وهو أعلم بأوابد اللغة وشواردها ؟ ولكن لأنه رأى فى القافية قيداً للعاطفة يجب التحرر منه

(البقية فى العدد القادم)

خليل جمعة الطوال

(١) خالتى وقصص أخرى
(٢) وكيل البريد وقصص أخرى
مجموعتان من أقاصيص رابندرانات طاغور
ترجمة عبد اللطيف النشار
(٣) جنة فرعون وقصائد أخرى
(٤) نار موسى وقصائد أخرى
ديوانان من شعر عبد اللطيف النشار
(٥) الاسكندر
رواية تاريخية عن حياة الفاتح الكبير
ترجمة عبد اللطيف النشار
ثمن هذه الكتب الخمسة عشرة قروش بما فى ذلك أجرة البريد وتطلب بالبريد من صاحبها بعنوانه :
١٨ شارع الإبعادية بمحرم بك بالإسكندرية